الفصل الثالث
مبشرات ومؤيدات أمة الإسلام

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ(٨١)فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٨٢)أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ(٨٣) ﴾ [آل عمران] .

القسم الأول
في القرآن الكريم

إن الله تعالى الذي ارتضى لأمة الإسلام أن تكون خير الأمم ، وأنزل القرآن محفوظاً من لدنه إلى يوم يبعثون ، واختار نبي الإسلام محمدا ﷺ خير خلقه لحمل هذه الرسالة ولإبلاغها وبأمانة إلى الناس،وجعل اللغة العربية اللغة المتميزة ليكون التنزيل بها .. واختار قوماً من بين الناس تميزوا بصفاء الفطرة وسلامة الحواس،ليكون بينهم تلك الميزة الخالصة،وهي صفاء العقيدة واستيعاب التوحيد،بعد أن ضلت الإنسانية في السابق عن محور رسالات الأنبياء،ودعاة التوحيد ليضلوا ويضلوا .

تلك الأمة الوثنية التي تمكنت أن تصفي عقيدتها بتوحيد الله تعالى وعدم الإشراك به ، والتأكد أن محمداً عبد من عباد الله ، ومع أن البعض قد حاول أن ينحرف وراء الشرك السائد والمعلن في العالم من المسلمين ، لكن حجتهم كانت هزيلة ، وثباتهم أيضاً غير دائم ، فانهزمت الأفكار واندحر حملتها وبقي الإسلام الوعاء الصحيح السالم من الشوائب والترهات ، يحتوي أيا من خلق الله وعوه وعملوا به أن ينصرهم ويمدهم ويسدد خطاهم .

وتحققت إرادة الله بأن المسلمين ومن المسلمين فقط هم خير أمة أخرجت للناس ، أيد الله تعالى هذه الأمة ، وفي مرحلة التكوين الأولى ، وحيث لم يكن الرسول والذين آمنوا معه قادرين على رد الأذى عن أنفسهم ، قد وعدهم الله تعالى في كثير من آي القرآن الكريم بأن يمدهم وينصرهم ، ويدحر عدوهم ويسودوا الدنيا ويعمروها بإرادة الله تعالى وتوجيهه الذي يريده لعباده، والذي أرسل رسله به هداية الناس ، وإنقاذاً لهم من عذاب الدنيا والآخرة .

جاءت رسالة الإسلام التأكيد والبرهان على أن هذا الدين ستكون له السيادة في الدنيا وحسن ثواب الآخرة . ومع كل الانحرافات السابقة لظهور الإسلام ، وكذلك الانحرافات التي لحقت .. لكن الإسلام بقي هو الإسلام ؛ في مد متواصل متوازٍ ثابت ، ليس طفرة وينتهي ، وليس ظاهرة وتخمد ، وليس وقتاً محدداً ويمضي .. لكنه استمرار وتطور وتقدم وثبات ، وتوضيح وإبداع وتجديد ، لا ينقطع ولا يتحول ، وهكذا جاء البرهان في الماضي ، ومازال الأمر قائماً في كل زمان ومكان ، فإن ظن الظانون أن الإسلام في أوقات التحدي والمقابلة غير المتكافئة بينه وبين أعدائه أن نهايته قربت ، وانهزامه قائم ، وإذ بجميع المقاييس والتخمينات والتوقعات ينقلب الأمر لصالح الإسلام ، فيخرج من التحدي والمقابلة الغير متكافئة أكثر قوة وأكثر ثباتاً وعطاءً وفهماً ، وأكثر

عدداً وتوسعاً وانتشاراً .. ولقد عاصر الإنسان المعاصر في القرن الماضي وبداية هذا القرن ، كل هذه المواقف ، وحكم المراقبون حسب معطيات العقل البشري أحكاماً خابت كلها ، وبطل التخمين وانقلب السحر على الساحر .. ومازال العطاء يستجد ، ومازالت خير أمة أخرجت للناس لتمتد وتعطي أكلها ، فقد وصفها الله تعالى بالكلمة الطيبة بقوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ(٢٤)تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٥)وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ(٢٦)يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ(٢٧)** ﴾ [إبراهيم] .

ولقد وعد الله المؤمنين – قبل غيرهم – بأن يستخلف غيرهم إن هم قصروا ، أو ترددوا في حمل الرسالة،كما أنه جل وعلا وعد الإنسانية عموماً ببعث أمة الإسلام في كل زمان ومكان ، إن ظن الظانون أنها انتهت وخبت،أو اعتراها الوهن والضعف والتخاذل،أو خبى بريقها ، أو قل عددها ، أو ندر وجودها قال تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤)** ﴾ [إبراهيم] .

ولذلك فإن التجديد مستمر في أمة الإسلام ، على نفس المنهج ، على نفس المرجعية ، كتاب الله وسنة رسوله " والعالمون والعاملون بهذا الدين " الذين يشملهم قول الله تعالى : ﴿**وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ** ﴾ إن ما حصل في كل ما سبق وكل ما لحق بالإسلام ؛ أن أي تجديد يقلب المفاهيم والموازين ، ويقلب المدارك والمعتقدات ، حتى أن الكثير من الأصول قد فقدت في عمليات التجديد بالديانات السماوية ، أو المبادئ السابقة أو اللاحقة للإسلام . لكن الإسلام يعود أدراجه ليجدد المبدأ ، ويجدد المعتقد ، ويجدد مفهوم الإنسان للإسلام ، ومفهوم الإسلام للإنسان . من هذا المنطلق فإننا في هذا الفصل نشير إلى المرتكزات المادية التي بشر بها الإسلام هذه الأمة ، فكانت ضرباً من البشارة بالغيب ، ولكنها تحققت بتفصيلاتها التي وردت في الأثر .. ووقعت فعلاً بوعد من الله تعالى الذي لا يخلف وعده ؛ كما أن النبي ﷺ قد أطلعه الله تعالى على بعض هذا الغيب الذي عرف بالبشارة ، فقد كان النبي ﷺ يحمل صفتين ظاهرتين هي البشير والنذير .. فكانت البشارات تتوالى وتتحقق على الواقع في أزمنة متباعدة وظروف مختلفة ؛ وتوافق واختلاف القوى في العالم .. حتى أن التاريخ الإسلامي قد امتلأ بأحداث من هذا القبيل ، أعطت كلها الإشارة والبشرى لثبات هذا الدين ، ولبلوغه أقاصي الدنيا وأدانيها .. كما سيرد فيما ذكره الله تعالى

وذكره نبيه وتحقق بواقع الحال .. كأنما يتحدث به المبشرون عن أحداث قد وقعت .. في الماضي ، أو تحدث في الحاضر ، وليس أموراً ستحدث في المستقبل، وقد يكون المتحدث أو لا يكون .. !

دعاء إبراهيم : لقد كانت أمة الإسلام استجابة لله تعالى لدعاء إبراهيم عليه السلام عندما رفع القواعد من البيت،وأعاد إلى الأرض بنيان هذا البيت ؛ الذي ارتضاه الله تعالى من لدن آدم . تصور إبراهيم أن تكون الأمة التي تعيش حول هذا البيت أمة فريدة ، أمة غير الأمم ، تتبع رسولاً غير الرسل،هو منهم، ولكنه خاتمهم والأشرف بينهم ، ويحمل الرسالة الخاتمة للبشرية كافة .. إن الناس يدعون أن أفلاطون قد تصور المدينة الفاضلة .. ولكن الأسس التي تصورها أفلاطون كانت أمة وثنية تنبت بها ببعض عادات الجهل لتنقص من إنسانية الإنسان .. وتدارسها الناس ويذكرونها حتى اليوم ، ولكنها لم تقم ، لأن الأسس التي أرادها الله لهذه الأمة ، غير أسس ما تقوم عليه أمم الأرض قاطبة . دعاء إبراهيم عليه السلام سبق ظهور النبي ﷺ وهو من ذريته حوالي ٢٥٠٠ عام حسب التقديرات المحتملة لحياة ذرية إبراهيم عليه السلام ، والأسس الربانية التي وردت على لسان إبراهيم تتجلى في قول الله تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** (١٢٦) **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** (١٢٧) **رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** (١٢٨) **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** (١٢٩)﴾ [البقرة] .

دعوة إبراهيم الأمة المؤمنة الموحدة ، ومن كفر من هذه الأمة فله متاع قليل في الحياة الدنيا ومرده عذاب السعير . ومن ثم فإن الرسول المرجو أن يؤدي أمانة الرسالة بين الناس آيات الله ويعلمهم القرآن (الكتاب) والحكمة ﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُوْلُوا الأَلْبَابِ** (٢٦٩)﴾[البقرة]. ويزكيهم .. أي يخلص بأرواحهم وأجسامهم وأنفسهم إلى طاعة الله عز وجل ، وهذه الصفات التي وردت على لسان إبراهيم قبل ٢٥٠٠سنة من بعثة النبي ﷺ قد تحققت في الأمة الموحدة المؤمنة بالله وباليوم الآخر ، وهي الصفة التي لازمت صفة " خير أمة أخرجت للناس " ومع ظهور الكثير من الأنبياء ، والرسل من سلالة إبراهيم لكن كل هذه الأمم لم تنطبق عليها أمنية إبراهيم لأن المكان - مكة - والموحدين (المسلمون) والعلم الخالد الذي علمه النبي ﷺ للمؤمنين ما ورد في كتاب الله من العلم والحكمة ، وتزكية النفس وإخراجها من الضلال والشرك والإلحاد ، إلى نور الإيمان

والتوحيد والإسلام : ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** (٢٥٧)﴾ [البقرة] .

دعوة إبراهيم عليه السلام تحققت بحفيده رسول الله ﷺ محمد بن عبد الله .. المنتسب إلى عدنان . وإلى إسماعيل وإلى إبراهيم عليهما السلام .

دعاء إبراهيم لحقته بشارات كثيرة على لسان الرسل والأنبياء الذين كثر ابتعاثهم لبني إسرائيل خاصة ، وفي العالمين لأقوامهم عامة .. **وجاءت البشرى** بعد ذلك على لسان آخر أنبياء بني إسرائيل **عيسى عليه السلام** .. الذي جعله الله تعالى معجزة في خلقه ، وأعطاه من المعجزات ما لم يعط لغيره من الأنبياء .. نعم لعل كل الرسل قد دعم الله دعوتهم بمعجزات ؛ لكن عيسى عليه السلام كان معجزة في خلقه من غير أب ؛ وولادته ونطقه وهو طفل ، والحديث عن نفسه ، وشفاء المرضى وإحياء الموتى .. وأنزل الله تعالى عليه مائدة من السماء ؛ عند إلحاح أصحابه الحواريين الذين طلبوا مثل هذه المعجزة .. لكن أهم ما في رسالة عيسى عليه السلام تحديده المطلق لما بعث به .. فليس هو النبي الخاتم .. نعم هو الخاتم من سلالة إسحاق ، ولكنه أكد لبني إسرائيل وحتى ما ورد من إشارات في الأناجيل المعتمدة من قبل النصارى بهذه البشارة . قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام : ﴿ **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ** (٦) ﴾ [الصف] .

والقول واضح بمحدودية رسالة عيسى في بني إسرائيل مصدقاً لما بين يديه من التوراة التي علمه الله إياها – غير التي يتداولها أو تداولها معاصروه – ومن ثم فإنه بشر بالنبي الأمي محمد وسماه باسمه، حتى لا يتيه الناس فيمن هو ؟ ويختلفوا في اسمه كما اختلف بنو إسرائيل في بقرة طلب موسى منهم أن يذبحوها . سماه باسمه وتحققت البشارة بولادة المصطفىﷺ في عام ٥٧١م ٢٠ إبريل (نيسان) أي بعد ولادة عيسى بما يقارب الستة قرون إلاّ ربع القرن ، تحققت البشارة بمحمد ﷺ ، وظهر وأرسل للناس كافة وبنى خير أمة أخرجت للناس حقاً وعدلاً فيما كان تصور بعثة إبراهيم .. وكما بشر ببعثته عيسى عليه السلام . وهناك الكثير من البشارات والإرهاصات التي سبقت ظهوره ﷺ في مولده ،وشق صدره ، وصدقه وأمانته وتهيئة الله تعالى لهذا المختار لحمل رسالة خير أمة أخرجت للناس وأحسنهم .

الأمـــة الوسط :

﴿وَكَـــذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًـــا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُـــولُ عَلَـــيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّـــاسِ لَـــرَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣) ﴾ [البقرة] .

توسع المفسرون في تفسير هذه الآية ، وأعطوها الكثير من المفاهيم ، ولكنهم جميعاً اعتبروا أن الوسط هو العدل ، وخير الأمور أوسطها ، وخير الأمم أوسطها ، وهي صفة تعادل لأمة الإسلام كونها خير الأمم ، فلا علو يجلب الظلم ، ولا دنو يولد الذل ، وإنما الوسطية التي ارتضاها الله تعالى لأمة الإسلام، وهو تأكيد جديد لتميز أمة الإسلام عن غيرها من الأمم ، والرسول بعد ذلك شهيد على المؤمنين في الدنيا والآخرة ، وهذا مما أكد التنزيل على أن هذه الأمة - دون غيرها - هـــي الفيصل في جميع صفات الخير والعدل والبركة والوسطية .. قال القرطبي [1] : فيه أربعة مسائل :

أولاً .. قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ المعنى : وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسطاً ؛ أي جعلناكم دون الأنبياء ، وفوق الأمم ، والوسط العدل . وأصل هذا أن أحمد الأشياء أوسطها ، وروى الترمذي عن أبي سعيد الحديث عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾قال :" عدلاً " قال : وهذا حديث حسن صحيح ، وفي التنزيل : " وقال أوسطهم " أي أعدلهم وخيرهم .. وقال زهير :

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي بمعظم

وقال آخر :

أنتـــم أوسط حـــي علمـــوا بصغير الأمـــر أو إحدى الكُبَر

وكن من الناس جميعاً وسطا

ووسط الوادي : خير موضع فيه وأكثره كلأ وماء ، ولما كان الوسط مجانباً للعلو والتقصـــير كان محموداً ؛ أي أن هذه الأمة لم تفعل غلو النصارى في أنبيائهم ، ولا قصروا تقصير اليهـــود في أنبيائهم ، وفي الحديث " خير الأمور أوسطها " وفيه عن علي ﷺ : " عليكم بالنمط الوســـط " فإليه يترل العالي ، وإليه يرتفع النازل وفلان من أوسط قومه ، وإنه لواسطة قومه ، ووسط قومه ، أي من خيارهم ؛ وأهل الحب فيهم . وقد وسط وساطة وسطة ، وليس من الوسط الذي بـــين شيئين في شيء والوسط (بسكون السين) الظرف تقول : صليت وسط القوم ، وجلست وسط

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن ـ محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ٢ / ١٥٢ .

الدار (بالتحريك) لأنه اسم قال الجوهري : وكل موضع صلح فيه " بين " فهو وسط ، وإن لم يصلح فيه " بين " فهو وسط بالتحريك وربما يسكن وليس بالوجه .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ **لتكونوا** ﴾ نُصبَ بلام كي ، أي لأن تكونوا " شهداء " خبر كان . ﴿ **عَلَى الناسِ** ﴾ أي في المحشر للأنبياء على أممهم ، كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : " يُدعى نوح عليه السلام يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يا رب فيقول: هل بلغت ؟ فيقول : نعم فيقال لأمته: هل بَلّغكم؟ فيقولون : ما أتانا من نذير .. ! فيقول : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فيشهدون أنه قد بلغ ، ويكون الرسول عليكم شهيداً " فذلك قوله عز وجل : ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣)**﴾ [البقرة] .

وذكر هذا الحديث مطولاً ابن المبارك بمعناه ، وفيه : فتقول تلك الأمم : كيف يشهد علينا من لم يدركنا ؟ فيقول لهم الرب سبحانه : كيف تشهدون على من لم تدركوا ؟ فيقولون : ربنا بعثت إلينا رسولاً وأنزلت إلينا عهدك وكتابك وقصصت علينا أنهم قد بلغوا .. فشهدنا بما عهدت إلينا . فيقول الرب : صدقوا .. فذلك قوله عز وجل : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً** ﴾ ـ والوسط القول :﴿ **لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً** ﴾ قال ابن القيم : فبلغني أنه يُشهدُ يومئذ أمة محمد عليه السلام . إلاّ من كان في قلبه " حنة [1] على أخيه " .

وقالت طائفة : معنى الآية : يشهد بعضكم على بعض بعد الموت ، كما ثبت في صحيح مسلم عن أنس عن النبي ﷺ قال حين مرت به جنازة فأثنى عليها خيراً فقال : " وَجَبَتْ وجبت وَجَبَتْ " ومُرَّ بجنازة فأثنى عليها شراً فقال : " وجبت وجبت وجبت " فقال رسول الله ﷺ : "من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة ، ومن أثنيتم عليه شراً وجبت له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض ، أنتم شهداء الله في الأرض " أخرجه البخاري بمعناه . وفي بعض طرقه في غير الصحيحين وتلا : ﴿ **لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾ [البقرة : ١٤٣] وروى أبان وليث عن شهر بن جوشب عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " أعطيت أمتي ثلاثاً لم تعط إلاّ الأنبياء .. كان الله إذا بعث نبياً قال له : ادعني أستجب لك .. وقال لهذه الأمة : ادعوني أستجب لكم .. وكان الله إذا بعث النبي قال

---

(١) الحنة ـ بكسر الحاء ـ العداوة ، وهي لغة قليلة في الإحنة .

له: ما جعل عليك في الدين من حرج .. وقال لهذه الأمة : ما جعل عليكم في الدين من حرج .. وكان الله إذا بعث النبي جعله شهيداً على قومه .. وجعل هذه الأمة شهداء على الناس " أخرجه الترمذي الحكيم أبو عبد الله في نوادر الأصول " .

الثالثة : قال علماؤنا : أنبأنا ربنا تبارك وتعالى في كتابه بما أنعم علينا من تفضيله لنا باسم العدالة وتوليه خطير الشهادة على جميع خلقه ، فجعلنا أولاً مكاناً وإن آخر زماناً ؛ كما قال عليه السلام : " نحن الآخرون الأولون " وهذا دليل على أنه لا يشهد إلاّ العدول ، ولا ينفذ قول الغير على الغير إلاّ أن يكون عدلاً .

الرابعة : وفيه دليل على صحة الإجماع ووجوب الحكم به ، لأنهم إذا كانوا عدولاً شهدوا على الناس ، فكل عصرٍ شهيداً على ما بعده ، فقول الصحابة صحبة وشاهد على التابعين ، وقول التابعين على من بعدهم ، وإذا جعلت الأمة شهداء ؛ فقد وجب قول قولهم ولا معنى لقول من قال: أريد به جميع الأمم . لأنه حينئذٍ لا يثبت مجمع عليه إلى قيام الساعة وبيان هذا في كتب أصول الفقه .

قوله تعالى: ﴿ **ويكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾ [البقرة: ١٤٣] قيل: بأعمالكم يوم القيامة ، وقيل :" عليكم " بمعنى لكم أي يشهد لكم بالإيمان ، أي يشهد عليكم بالتبليغ لكم . انتهى .

اختيار الله تعالى لهذه الأمة بالخيرية وبالوسطية وبالتمييز بالإيمان والتوحيد ؛ لهو التأكيد على أن الله تعالى سيبقى هذه الأمة على مدار الأزمان اللاحقة لها ، حتى تكون شهيدة على الناس ، وحتى تقوم هي بالتبليغ والشهادة في الدنيا والآخرة ، والرسول عليها بعد ذلك شهيد .

هذه الصفات لم تكن مجتمعة في أمة من الأمم . فضل الله تعالى بني إسرائيل على سائر الأمم في زمانهم عندما اتبعوا الرسل وجاهدوا في سبيل الله ، وأعطاهم الله تعالى بعضاً من صفات الأمة الخيرة ، لكنهم لم يكونوا أهلاً لهذا الحمل ، فانقلبوا ، وأفسدوا وقتلوا الأنبياء ، واستباحوا الحرمات، وأشركوا ، وتطاولوا على ذات الله وحرفوا كتبهم وكذبوا بها حتى أصبح الصدق نادراً فيها .. والمتتبع لثقافة بني إسرائيل يجد أنها تقوم على تشويه صورة الأنبياء فنسبوا إليهم انحرافاتهم ، وجعلوا القتل ديدنهم والنقمة على الإنسانية ، والحقد على غيرهم من الأممين ، واستغلال كل صفات الشر لممارستها على من سواهم .

ومن ثم محاولة اتباع البعض القليل مما أنزل إليهم بينهم ، والعنصرية والترفع والحقد والبغض للناس كل الناس ؛ أمر ملأ ثقافاتهم ، وما قدموه باسم العلم على لسان بعض العلماء أمثالهم ، أو الذين تربوا بينهم . أمة الإسلام التي زادت وتزيد وكبرت وتكبر ، ونبذت بشدة بعض الانحرافات

التي حاول أهل الكتاب والمشركون إدخالها الإسلام ، فحاصروا أصحاب الفكر الضال على مدى التاريخ ، وبين الصالحون مغالطاتهم وانحرافاتهم ، وعرفوا فيهم ذلك الضلال فما سكتوا عنه ، بل أظهروه وبينوه وردوه إلى أصوله ، وبينوا أن الإسلام في صفائه وخيريته ووسطيته إنما هو الدين الباقي عند الله وسيبقى للبشرية جمعاء .

إن تميز أمة الإسلام وانفرادها بالتوحيد ؛ كان له الأثر الأكبر في الانتصارات التي حققتها هذه الأمة على الذين وقفوا في وجه انتشار الإسلام في العالم ، وهذه الانتصارات الغير مسبوقة في تاريخ الأمم أذهلت المراقبين والمؤرخين ، الذين وجدوا فيها أعمالاً خارقة ليست من طاقات وتدبر أهل الأرض،ولقد سقنا الأمثلة الكثيرة على ذلك. ومن هذا المنطلق فقد حدد الله تعالى لهذه الأمة المتميزة ما يجب عليها أن تفعله،وبين أساس العمل في هذه الأمة مهما تشعبت تلك الأعمال تقع تحت قضايا الإيمان والتوحيد. وهذا ما حافظت عليه أمة الإسلام. قال تعالى: ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)** ﴾ [البقرة] .

ومن غير المسلمين على مدار تاريخهم الطويل حافظ على هذه الصفات ؟ وجدد أثرها كلما خبت في جيل من الأجيال ؟ حتى الذين انحرفوا من المبدعة والمتصوفة والباطنية فقد غالوا في هذه الصفات حتى خرجوا عن الحد الأمثل (الوسطية) التي أرادها الله تعالى لهذه الأمة العظيمة ، وبذلك فقد تمكنت هذه الأمة بفضل من الله الذي هداها واختارها كخير أمة ، وجعلها الأمة الوسط من سائر الذين أنزل عليهم الكتاب ، وبعث فيهم الرسل . أو الذين كفروا بعد هداية ، أو الذين ضلوا بعد استقامة ، أو الذين حرفوا وانحرفوا عن سبيل الرشد ، أو الذين تفرقت بهم السبل حتى خرجوا من هذه الدائرة الإيمانية التي ظهرت فيهم في الذين رافقوا النبوات من أتباع الرسل والحواريين والمخلصين ، ولكنهم بعد ذلك انحرفت بهم الشهوات ، وأغراهم الشيطان ، ورضوا بالضلالة عن الهدى ، وبالكفر عن الإيمان وذلك موقعهم ووصفهم الدقيق في كتاب الله عز وجل بقوله جل وعلا : ﴿ **زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢) كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمْ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا**

اخْتَلَفَ فِيهِ إِلا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣) ﴾ [البقرة].

وعد الله تعالى أمة الإسلام بالنصر والثبات والاستمرار والبقاء . والتميز بين الأمم ، وربط فساد الأرض بضعف المسلمين ، وعمارة الأرض بانتصارهم وتفوقهم وسيادقم ، ووعد الله تعالى هذه الأمة بالامتداد ، وليس الانحسار ، فإذا وقف مدها في بقعة من بقاع الأرض ؛ اخترقت أفكارها وشعاعها وخيراقا أرضاً أخرى لم تكن قد عرفت الإسلام من قبل . ولقد كانت الصورة مصغرة في حياة الرسولﷺ فمن أوحي إليه إلى أربعة آخرين من أقرب المقربين إلى قلبه .. زوجه خديجة من النساء ، وابن عمه علي من الأطفال ، ومولاه زيد بن حارثة ، وصديقه وأقرب المقربين أبي بكر من الرجال رضي الله عنهم أجمعين .

ومع آيات قليلة جداً بدأ التصديق بالتنزيل ، وبالنبوة ، وبصلة الأرض بالسماء .. وكلما نزلت آية دخل في الإسلام مؤيد جديد رجل أو امرأة . وامتدت السنون وكانت الآيات تتوالى ، والأعداد تزداد ، وخرجت الدعوة من السر إلى العلن ، وبدأت قضية الإسلام تأخذ مجراها كطرح جديد بديل لكل ما في المجتمع من جاهلية ، وتبين الآيات التي أخذت صبغة التحدي والإنذار ، تبشر المؤمنين الذين زاد عددهم الآن - بأن لهم الجنة ـ ليس إلاّ ـ فلم يكن في تلك السنوات تهيئة للمؤمنين إلاّ التصديق والتحمل والصبر والثبات ، وتوسيع معارفهم بقرآن معجز يأخذ ألباب الأعداء قبل الأصدقاء .

قال ابن إسحاق : وحدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيداً ـ قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ـ ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ، ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ورؤوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون ؛ فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال : يا ابن أخي ، إنك منا حيث علمت من السطة (الشرف) في العشيرة ، والمكان في النسب ، إنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها .. وجدد عتبة عرض قريش الدائم على الرسول ﷺ من المال والنساء والملك والطب ـ حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه ، قال :" أقد فرغت يا أبا الوليد ؟"قال : نعم ؛ قال : " فاسمع مني" : قال : أفعل : فقال : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حم (١) تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢)

كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥)﴾ [فصلت] .

ثم مضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه . فلما سمعها منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه ؛ ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال : " قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك " .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي ، وخلوا بين الرجل وبين ما هو فاعتزلوه ، فوا الله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم .. ! [1] .

هذه الشهادة من الأعداء تكررت في كثير من اللقاءات بين النبي ﷺ وبين المشركين الذين استجابوا ، عدا من قتل من الذين استكبروا في المعارك التي جرت بين المسلمين وبين أعدائهم . نعم الإسلام يتوسع ،ودائرة الشرك تضيق،واتخذت كافة الإجراءات والوسائل لمنع هذا الانتشار الذي تعزز بدخول الناس أفواجاً في هذا الدين: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ(١)وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا(٢)فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا(٣)﴾ [النصر].

وكانت تضييق دائرة الشرك التي تلامس الإسلام . ويتوسع الإسلام بثبات وقوة وفهم يوماً بعد يوم . إن بشارات القرآن الكريم كانت محققة فيما وعد الله تعالى به عباده المؤمنين ، وحقق الله وعده ونصر عبده وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده . بشارات القرآن الكريم كانت تنزل على رسول الله وهو في حالات الضعف ، وقوة أعدائه ، حتى جعل الكثيرين يشكون في نصرة هذا الدين وتوسع رقعته ، وكان كل ما وعد به القرآن الكريم نبيه ﷺ والمؤمنون قد تحقق وزيادة .

إن ما قام عليه الإسلام كان حقاً وصدقاً وعدلاً .. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .. كلمة قامت بها الأرض والسماوات ، وخلقت لأجلها جميع المخلوقات وبها أرسل الله تعالى رسله ، وأنزل كتبه ، وشرع شرائعه ، ولأجلها نصبت الموازين ووضعت الدواوين ، وقام سوق

---

(١) انظر : السيرة النبوية – ابن هشام ١ / ٣١٣ ، ٣١٤ .

الجنة والنار ، وبها انقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار والأبرار والفجار ، فهي منشأ الخلق والأمر، والثواب والعقاب ، وهي الحق الذي خلقت له الخليقة ، وعنها وعن حقوقها السؤال والحساب ، وعليها يقع الثواب والعقاب ، وعليها القبلة ، وعليها أسست الملة ، ولأجلها جردت سيوف الجهاد ، وهي حق الله على جميع العباد ، فهي كلمة الإسلام ، ومفتاح دار السلام ، وعنها يسأل الأولون والآخرون ، فلا تزول قدما عبد بين يدي الله حتى يسأل عن مسألتين : ماذا كنتم تعبدون ؟ وماذا أجبتم المرسلين ؟

فجواب الأولى بتحقيق " لا إله إلا الله " معرفةً وإقراراً وعملاً .

وجواب الثانية بتحقيق " أن محمداً رسول الله " معرفةً وإقراراً وانقياداً وطاعة .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وأمينه على وحيه،وخيرته من خلقه ، وسفيره بينه وبين عباده ، المبعوث بالدين القويم ، والمنهج المستقيم ، أرسله الله رحمة للعالمين ، وإماماً للمتقين ، وحجة على الخلائق أجمعين ، أرسله على حين فترة من الرسل ، فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل، وافترض على العباد طاعته وتعزيره ومحبته ، والقيام بحقوقه ، وسدَّ دون جنته الطرق ؛ فلن تفتح لأحد إلاّ من طريقه ، فشرح له صدره ، ورفع له ذكره ، ووضع عنه وزره وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره ، ففي المسند من حديث أبي خبيب الجرشي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : " بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذلة على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم " [1] وكما أن الذلة مضروبة على من خالف أمره ، فالعزة لأهل طاعته ومتابعته ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وَلاَ تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** (١٣٩) ﴾ [آل عمران] .

وقال تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [المنافقون : ٨] .

وقال تعالى : ﴿ **فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ** ﴾ [محمد : ٣٥]

وقال تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ** (٦٤) ﴾ [الأنفال][2]

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٢ / ٥٠ ، ٩٢ وإسناده حسن .

(٢) انظر : زاد المعاد في هدي خير العباد ـ ابن قيم الجوزية ١ / ٣٤ ، ٣٥ مؤسسة الرسالة ط٢ ١٩٨٥ . تحقيق شعيب الأرناؤوط – عبد القادر الأرناؤوط .

تباشير القرآن الكريم بعزة المسلمين تحققت بالانتقال الواضح من التحدي الذي كان المسلمون تحت تأثيره في مكة ، وسيادة قريش وقوتها بالرجال والمال والجاه ، وقلة المسلمين وضعفهم ، وأمر النبي ﷺ للفئة المؤمنة بالصبر والثبات ؛ وهذا ما سنذكر بعض تفصيلاته لاحقاً .. إلاّ أن التحول الكبير في عزة المسلمين جاءت في مكة نفسها عندما أسلم حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب، وكلاهما من ذروة قوة قريش ، انتقلا إلى صف المسلمين وانتظما في صفوف القلة الضعيفة لمقابلة التحدي القوي الذي كانت تمارسه قريش .

وكان شعاع الإسلام قد تخطى مكة إلى الحبشة ليؤمّن المسلمين الفارين من بطش قريش وليجدوا الحماية والرعاية من أعلى منصب في تلك البلاد ، من الحاكم والملك النجاشي الذي اختاره الرسول ﷺ لأنه لا يظلم عنده أحد ، ووجد الضعفاء من المهاجرين الأولين الأمن والاطمئنان والحماية من محاولات قريش استرداد هؤلاء ؛ باستغلال العلاقة الحميمة بين قريش والحبشة ، والعلاقة الفردية المتميزة بين النجاشي وعمرو بن العاص .

ولكن لم يذعن النجاشي لطلبات الإعادة بل خرج على صداقته الشخصية في وجه عمرو ، والعلاقة الحميمة مع قريش ، واستمر بحماية الفارين إليه الذين جاءوا بهجرتين ، وعادوا إلى مكة بدفعة أولى عندما سمعوا بإسلام قريش ، وعادت الدفعة الأخيرة في السنة السابعة للهجرة .

و لم يقتصر الأمر على هذا الشعاع الذي تخطى الحصار المفروض على الدعوة في مكة ؛ لكن شعاعاً قوياً آخر تسرب عبر حجاج يثرب إلى المدينة ، ولكن هذه المرة كان إلى أفراد من الأوس والخزرج ، و لم يكن لسلطة حاكمة هناك . فلم يكن يحكم يثرب وقتها إلاّ العرب والحرب الضروس بين الأوس والخزرج ، وتآمر قبائل يهود الذين يدفعون كلا الطرفين إلى الحروب واستمرار العداوة بين الحيين من يثرب واستمرارها ، ووصلوا إلى حالة متقدمة من إظهار التحالف مع أحد الفصيلين لاستمرار العداوة وتسعير أوراها .

فالذين آمنوا كانوا أفراداً منهم إياس بن معاذ الذي مات في إحدى أيام الأوس والخزرج في بعاث ؛ ولا يشك من حوله بأنه مات مسلماً ، إلى أسعد بن زرارة وزملائه الستة ، إلى بيعة العقبة الأولى ، إلى انتشار الإسلام في يثرب إلى بيعة العقبة الثانية ، ومن ثم الهجرة المكثفة إلى يثرب جماعات وأفرادا ، إلى هجرة النبي ﷺ بنفسه إلى هناك ومن ثم تأسيس الدولة وإقامة صرح الأمة وتسيير السرايا والغزوات ، إلى النظام المحكم الذي بدأ يتنزل في حقبة من حياة الرسول ﷺ لم تكن حتى بمدة الدعوة في مكة ؛ بل إنها لم تدم أكثر من عشر سنين ، عندما تمكنت دولة الإسلام من السيطرة الكاملة على جميع أجزاء جزيرة العرب في هذه الفترة ؛ من الوفود التي جاءت مسلمة ،

إلى الرسائل التي أرسلها النبي إلى القوى الداخلية والخارجية عن الجزيرة ، إلى الفرس والروم وأتباعهم من الملوك والمسؤولين العرب . وكانت هذه العملية التأكيد القوي لثقة النبي ﷺ بما وعده الله تعالى ولما أعطاه من العزيمة والشريعة والترتيب المطلق لمؤسسات الدولة .

ولقد برزت هذه القضايا باصطدام العرب أولاً بالفرس في ذي قار في العهد المكي ، ثم المصادمات والغزوات والسرايا مع الروم مباشرة في مؤتة ، ومع أتباعهم الكثر في تبوك ، ومن ثم إجلاء اليهود الذين رفضوا الدعوة التي عاشوا من أجلها من كل جزيرة العرب .

وقد أوضح الله تعالى في كثير من آيات القرآن الكريم تلك العلاقة المتميزة بين المؤمنين الذين وعدهم الله بالنصر والتثبيت ؛ وبين التزامهم بأوامر الله تعالى ونواهيه للوصول إلى هذا النصر ، وأوضح الله تعالى حال الذين أوتوا الكتاب من قبل ، فما ثبتوا على ما أوتوا وغيروا وبدلوا ، فاستخلف الله من بعدهم من آمن وصدق ، وتحقق وعد الله فيهم فنصرهم وأيدهم وجعلهم هم الغالبون .

والحديث التالي للمؤمنين بين لهم حال السابقين وما عليهم هم ليكونوا أصحاب الوعد الحق ؛ الذي تحقق في حينه وبعد ذلك وبعده وبعده ومازال يتحقق في كل زمان ومكان . قال تعالى : **﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ** (الحديث لرسول الله ﷺ) **فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ(١٨٤)كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ(١٨٥)لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ** (الحديث للمؤمنين أيضاً عن أتباع محمد ﷺ) **وَلَتَسْمَعُنَّ**[1] **مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ** (اليهود والنصارى) **وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا** (الوثنيون الذين أشركوا معه آلهة أخرى وهم العرب) **أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(١٨٦) وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ(١٨٧)لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنْ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٨٨)وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٨٩)﴾** [آل عمران] .

كان هذا حال أهل الكتاب السابقين ، يذكر الله تعالى النبي ﷺ بتلك الأحوال ولتهيئته للصبر على أذاهم ، فهم منحرفون عن الصراط المستقيم ولقد ارتضوا الحياة الدنيا في تنبيه واضح

---

(١) سبب نزول هذه الآيات:روى عدي بن حاتم وابن المنذر بسند حسن عن ابن عباس أنها نزلت فيما كان بين أبي بكر وفنحاص (من اليهود) من قوله السابق : ﴿ إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِياء ﴾ وذكر عبد الرزاق أنها نزلت في كعب بن الأشرف فيما كان يهجو به النبي ﷺ من الشعر ، ويحرض عليه كفار قريش في شعره . راجع التفسير المنير ٤ / ص ١٩٠ وما بعد في تفسير هذه الآيات .

لأن يصبر المسلمون على أذاهم ، ولا يسلكوا دربهم ، ويتجنبوا أن يضلوا كما ضل أولئك . ثم تتوالى الآيات البينات في أواخر سورة آل عمران ليصف الله تعالى المؤمنين وما وعدهم ، في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولقد تحقق للمسلمين ما وعدهم الله في هذه الدنيا ؛ بعد أن اختارهم ليكونوا خير أمة أخرجت للناس ، واختارهم ليكونوا الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعاً حاضر الأمم وماضيها .. وتبدأ الآيات التاليات بتذكير المؤمنين بملكوت الله تعالى وعظمته ، وآياته في خلقه . قال تعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ(١٩٠)الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(١٩١)رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ(١٩٢)رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ(١٩٣)رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ(١٩٤)فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ(١٩٥)﴾ [آل عمران] .

صور رائعة خالدة لحال المؤمنين مع ربهم ، إيمانهم بالله وطلب المغفرة ، استجابة لنداء الإيمان ، الخوف من عذاب الآخرة ، وسبقها طلب تحقيق وعود الله تعالى على لسان رسله ، فاستجاب الله لهم ذكوراً وإناثاً ، ووعدهم بأن لا يضيع أعمالهم ، فهم قد تحملوا في سبيل الله الهجرة ، والإخراج من الديار ، والأذى في سبيل الله ، وقاتلوا في سبيل الله واستشهدوا في سبيل الله ؛ فالله تعالى وعدهم بالمغفرة ، وتكفير السيئات ، وأعد لهم الجنة في الآخرة ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب ، صور رائعة ، واضحة ، جلية ، بينة ، لا لبس فيها ولا غموض وعد من الله قائم ، وقد تحققت وعود الله تعالى في كل خطوة خطاها المؤمنون ، ثم يأتي ذكر الكافرين ، وحالهم في الدنيا بصورة رائعة مشوقة بديعة ، تصور عزهم والذل بعده ، وتصور ارتفاعهم في الدنيا ثم نكوصهم إلى الدرجات الدنا ، ويبين الله تعالى ما كتب لهم في هذه الحياة قال تعالى :

﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(١٩٦)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(١٩٧)﴾ [آل عمران] .

وهل أبلغ من هذا ، ولْنَعُدْ للتاريخ نسأله ، ألم تكن تلك حال الكافرين ؟ يعلون في الأرض ، ويملكون ويحكمون ويتحكمون ويظلمون ويفسدون ، ثم تأتي الدائرة عليهم في ساعات ما كانوا يحسبونها ، ضرب الله لنا أمثالاً من فرعون وهامان ، وقوم نوح وقوم لوط وقوم صالح وقوم هود وغيرهم وغيرهم ، ارتفعوا في الأرض ، وبنوها أكثر مما بناها أسلافهم لكن الكافرين زالوا ، وذهب الآن ما عملوا وما فعلوا ، ما هو إلا متاع قليل ثم مأواهم جهنم .

وتستدرك صورة أخرى أبلغ وأروع ، متجاوزة الحياة الدنيا - التي لم يحرم منها المؤمنون ؛ بل هم أيضاً سادوا وعمروا وكان نصيبهم العلو في الدنيا والآخرة . وهدف المؤمنين الآخرة التي وعدها الله تعالى عباده في كثير من الخطوات ، وهذه الصورة البديعة تستثنى من خلق الله إذ أن مصير الكافرين جهنم وبئس المهاد كحتمية في آخر المكان ، يقول الله تعالى : ﴿ **لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ (١٩٨)** ﴾ [آل عمران] .

وتستدرك صورة أخرى من أهل الكتاب في هذا المقام آمنوا وصدقوا واستمروا على إيمانهم وصدقهم ؛ في أجيال متعاقبة مع أنبيائهم وبعد أنبيائهم . وهنا يذكر الله الذين آمنوا أن هؤلاء معكم بينكم في الماضي وبينكم في الحاضر . يصور الله مالهم ومآلهم ، ويستثنيهم من أهل الكتاب المغضوب عليهم (اليهود) والضالين (النصارى) ، وقد درأوا عن أنفسهم العذاب بإيمانهم بالله وإيمانهم بكتبهم وبالقرآن ، ولهم قلوب خاشعة طيبة أولئك لن يضيع الله أعمالهم ولن يضيع أجرهم فقال تعالى : ﴿ **وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩)** ﴾[آل عمران] .

وتختم سورة آل عمران في آياتها المائتين بأمر الله تعالى للمؤمنين أن يسلكوا طريق الهداية ، وأن يتجنبوا سبل الغواية فإن الله وعدهم بالنصر ، وعدهم بالتثبت ، وعدهم بالعلو في الدنيا والآخرة مصداقاً لقوله تعالى : ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)**﴾ [التوبة].

وقوله تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(١٠)تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(١١)يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً**

فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١٢)وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ(١٣)﴾ [الصف] .

يأتي أمر الله تعالى للمؤمنين خطاباً مميزاً مع خمس وثمانين خطاباً في القرآن الكريم اختص الله تعالى به المؤمنين مباشرة وفي هذه الآية الخاتمة لسورة كبيرة من سور القرآن آل عمران والآية ٢٠٠ يقول تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

اللهم إن هذا سبيلك نمشي عليه لننال ما وعدتنا في الدنيا والآخرة ، وإن اخترت من خلقك أحداً لأمر فإننا نرجو أن نكون نحن من خيارك ؛ لنكون من أهل هذه الأمة الخيرة ، نصدق بوعدك ، ونؤمن بعهدك ، ونرجو نصرك ، ونبتغي الفضل كل الفضل منك ، وأن تحشرنا مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا .

وعودة سريعة إلى الآية (١١١) من سورة التوبة ذات الدلالات الصادقة والواضحة البينة إلى أن وعد الله حق ، وأنه قد بشر بنشر هذا الدين على أيدي الفئة المؤمنة الصادقة ، التي صورها بأجلى الصور وأحسنها ، ووصف حملة الإسلام بالمؤمنين في كل مقال يخصهم في كتاب الله تعالى، وبذلك فقد أوضح الله تعالى تكامل الصورة لخير أمة أخرجت للناس .

هذه الأمة هي مجموعة المؤمنين الصادقين ، الذين صورهم الله تعالى في كتبه وعلى لسان رسله، وتجلت صورتهم الأوضح في القرآن الكريم الذي توالت أوصافهم ، وأوصاف الأمة الحقة التي يقيموها بأنه النموذج الذي أراده الله تعالى لخلقه ، وأظهره على لسان أنبيائه وبينه في كتبه المنزلة .

لكن الذين انحرفوا كبناة سلوكياً وغيروا في كتب الله وحرفوها وغيروها وبدلوها ، وكتبوا أفكارهم بأيديهم (شلت أيديهم) لم يحصلوا على الخيرية التي نزلت في القرآن الكريم مشيرة إلى جماعة المسلمين المؤمنين ، الذين يعول عليهم ويعتمد على ثباتهم وجهادهم ، وسلوكهم ، وسلامة عقيدتهم لإظهار هذه الأمة الخيرة في كل زمان ومكان .. ولن يكون قطعاً وجود الأمة إلاّ بين المسلمين . مع الإشارة إلى أن من سبق من الأمم لم يكونوا مؤهلين لهذه البعثة وحمل هذه الصفة ، واقتضى ذلك يقيناً لأن تكون الأمة الخيرة هي أمة الإسلام التي استجابت وثبتت ، وانتشرت ، ووجدت على أرض الواقع ، واقعاً منذ عهد الرسول ﷺ وصحابته .. إلى توالي الأيام على أمة الإسلام التي تحقق وعد الله تعالى فيها في كل زمان ومكان .

قال تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾ [التوبة] .

وعد من الله ووعده حق ، ووفاء بهذا الوعد ، ومن أوفى بعهده من الله .. ؟ هل - جلَّ جلال الله - على ما أنعم على هذه الأمة المسلمة من نعم . المؤمنون الذين يبيعون لله أنفسهم وأموالهم لقاء وعد الله تعالى لهم بالجنة في الآخرة ، والتثبت والسيادة في الدنيا ، ومن أوفى بعهده من الله . نعم لقد تحقق وعد الله ، فإن الهزم أتباع التوراة والإنجيل ؛ مع أن الوعد شملهم ، فإن أهل القرآن ثبتوا ، وبقوا ، وانتصروا ، واستمروا في الدنيا مع توالي الأجيال ، من غير انحراف ، ولا تحريف ، ولا خوف ، ولا الهزام ، ولو أن بعض السيادة في الدنيا تحققت لأعدائهم فقد كانت هذه السيادة أموراً عابرة ، ولو طالت فقد بين الله تعالى حالهم بقوله في سورة آل عمران : ﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(١٩٦)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(١٩٧)﴾ [آل عمران] .

وتكرر بين ندائين للمؤمنين في سورة التحريم بعد قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧)﴾ [التحريم]، وقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) ﴾ [التحريم] .

في ذكر الأمم السابقة الذين خالفوا رسلهم أو صدقوا بهم ، كان تصديق وعد الله حقاً وصدقاً فقد أهلك الله تعالى القوم الظالمين الذين كذبوا الرسل وقد أنذرهم الله تعالى على لسان أنبيائهم وصدق وعده بأن أهلكهم من حيث لا يشعرون . وكثيرون كانوا قد استهزأوا برسلهم عندما أنذروهم ، ولم يصدقوا ما أنذروهم به ، وكفروا بوعد الله فالله تعالى صدق وعده ، ونصر رسله ، وهزم المعاندين والمستكبرين ، ومنح المؤمنين على قلتهم أو كثرتهم . فإن الله قد دمر الكافرين ، ولم يصب المؤمنين الأذى . في جيش فرعون غرق وهو يتابع قوم موسى ، وفي قوم لوط الذي نجاه وأهله ودمر الظالمين وفي قوم شعيب وقوم صالح وهود .

ولقد نجى الله تعالى بني إسرائيل ، ونجى قوم يونس ، وفعل بذلك بأمة محمد التي تمكنت أن تسود الدنيا ردحاً طويلاً ، ومع هذا فهي محور حركة العالم اليوم رغم ما أصابها من الوهن والضعف .

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥) وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)﴾ [العنكبوت] .

حال هؤلاء الذين أشركوا بالله تعالى ؛ شبههم الله تعالى بأضعف خلقه ، وبأوهى بنيان في الدنيا ، وليسوا كما يتصور المرء من بنيانهم ومعابدهم وتماثيلهم وغير ذلك وإنما هم : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) ﴾ [العنكبوت] .

ثم يبين الله تعالى للناس هذه الأحداث التي جرت في الماضي ، وتجري عند تنزيل القرآن وتجري في الحياة الدنيا بالصراع الأبدي بين الإيمان والكفر . وينتصر بعون الله الإيمان ويمحق الكفر ، وذلك بثبات المؤمنين على إيمانهم وعدم دخولهم في سلالم التنازلات قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٤٢)وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ(٤٣)خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ(٤٤)اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ(٤٥)﴾ [العنكبوت] .

ثم ترد صور أخرى للذين آمنوا .. ثبتوا على إيمانهم .. أو انحرفوا بعد ذلك فإن الله أعطاهم من النعيم بصدقهم ، وعذبهم بما ضلوا وكانوا معتدين .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمْ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)﴾ [يونس].

وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ(٩٨)وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(٩٩)وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ(١٠٠)قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ(١٠١) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنْ الْمُنْتَظِرِينَ(١٠٢)ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ(١٠٣)قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ(١٠٤)وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلا تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ(١٠٥) وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنْ الظَّالِمِينَ(١٠٦)﴾ [يونس] .

تلك سنة الله تعالى في خلقه جزاء الصادقين التمكين في الدنيا والنعيم في الآخرة ، وجزاء الكافرين العذاب في الدنيا والنار في الآخرة ، وصدق الله وعده لأمة الإسلام ما دام المؤمنون من أمة الإسلام صادقي العهد مع الله تعالى .. فإن انحرفوا فإن الله تعالى يستبدل قوماً غيرهم ثم لا يكونوا أمثالهم .

قال تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ(٩٤)إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ(٩٥)الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٩٦)وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ(٩٧)فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ(٩٨)وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ(٩٩)﴾ [الحجر] .

في هذه الآيات تتمة لما سبقها تتعلق بالحديث بين المشركين والرسول ﷺ الذين جعلوا القرآن عضين ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ أي أن الله تعالى توعدهم بالعذاب الشديد.

فبعد أن بين الله لرسوله واجبه المكلف به وهو الجهر بالدعوة ، وقد انتهت مرحلة الإسرار في الدعوة فقال : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أي فاجهر بتبليغ دعوتك للجميع ، وواجه بها المشركين ولا

تأبه بهم فإن الله عاصمك وحافظك منهم ، وأعرض عن المشركين ، أي بلغ ما أنزل إليك من ربك ، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله .

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ هذا تأمين رباني وعصمة وصون ، أي إنا كفيناك شر المستهزئين بك ، المجاهرين في عداوتك ، الساخرين منك ومن القرآن ، وهم جماعة ذو قوة وشوكة من المشركين ، وهم خمسة نفر .. الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وعدي بن قيس ، والأسود ابن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث .

قال جبريل لرسول الله ﷺ : أمرت أن أكفيكهم ، فأومأ إلى عقب الوليد فتعلق بثوبه سهم ، فأبى تعظماً نزعه ، فأصاب عرقاً في عقبه فمات . وأومأ إلى أخمص العاص بن وائل ، فمات بشوكة دخلت فيه ، وأشار إلى عيني الأسود بن عبد المطلب فعمي . وأشار إلى أنف عدي بن قيس فمات ، وأشار إلى الأسود بن يغوث وهو قاعد بأصل شجرة ، فأصيب بداء ، فجعل ينطح رأسه بالشجرة ، ويضرب وجهه بالشوك حتى مات [1] .

المستهزئون : قصة من القصص الكثيرة التي صدق الله بها عندما وعد رسوله بأن يكفيه هؤلاء، وقد فعل الله بهم ما فعل ، وقدر عليهم ما قدر . وآلاف الحوادث التي وردت بوعد الله المؤمنين بالتمكين ، والكافرين بالهزيمة في بدر والخندق وتبوك ، ووعد الله المؤمنين بالحديبية أنهم سيدخلون البيت الحرام محلقين ، وجاءت عمرة القضاء ، ثم فتح مكة وهكذا فإن الأحداث ترافقت على امتداد حياة الرسول ﷺ ولم ينقطع نصر الله للمؤمنين ، فلو كان لانتهى الإسلام في حروب الردة، وإن تجاوزها فتحديه لأعظم قوتين في العالم بوقت واحد بأعداد وعدد لا تتناسب بحال من الأحوال مع قوة تلك الدول وعراقتها ، وعلومها المختلفة بحروب دائمة فاقت الألف عام ؛ تهزم هذه القوى بشكل عجيب وفي وقت واحد ، فلم يكن المسلمون مع واحدة ضد الأخرى لينالوا مكافأة المنتصر أو ليتزووا مع المهزوم ، لكنه التحدي القوي للقوتين معاً كمركزية دمشق والمدائن ، واندحار القوتين العظميين كما تهوى الأبنية من فعل الزلازل ، ثم امتداد هذه القوى المتباعدة ، الفرس والديلم وسكان آسيا والوصول إلى الصين ، ثم الامتداد إلى أفريقيا وآسيا .

ولم يكتمل القرن الأول من حياة الدعوة الإسلامية ،غير أنها في انسياب عجيب ونصر مؤزر وهزائم منكرة للأعداء ، وثبات عجيب للمجاهدين في كل موقع ومكان . إنها معجزة الإسلام التي لم يكن مثل انتشارها السريع وديمومتها ما يشبه حالها . وكذلك الانتصارات العقائدية الكبيرة بأن تتحول تلك الشعوب إلى الإسلام بأعجوبة بليغة أيضاً ؛ فمواقع الحروب كانت محدودة ، ولكن

---

(١) انظر : تفسير الرازي ١٩ / ٣١٥ ، تفسير القرطبي ١٠ / ٦٣ ، تفسير ابن كثير ٢ / ٥٥٩ ، التفسير المنير ١٤ / ٧٣ .

امتداد الإسلام تخطى همة الجيوش واستعداداتها وسبق المجاهدين إلى آفاق بعيدة جداً فاق كثيراً ما وصله المجاهدون بجهادهم المتواصل إلى يوم الدين . نعم إن أمة الإسلام التي وعدها الله تعالى بالتمكين قد مكنها وثبتها ، وأمدها بأقوام وجنود .

المهم أن هذه الأمة عاملت الأزمان والعقول والثقافات والأفكار بكل حيوية ووضوح ، فإن جرى بعض الانحرافات فهو نتيجة التأثر المباشر بمعتقدات الآخرين ، لكن المهم والأهم نصر حماة العقيدة، وانهزام المنحرفين بعد سيادة مؤقتة لهم في بعض الأقطار ؛ بقي المسلمون متمسكون بكتاب الله تعالى الثابت الصادق،وبسنة المصطفى ﷺ والتنقل الصافي في العقيدة من المنبت إلى يومنا هذا ، وما من شك أن بعض الجهل يجتاح بعض العقول ، لكن العقل المسلم أسرع العقول إلى قبول الصواب والابتعاد عن الخطأ ، وتحقيق النصائح والتوجهات والأوامر التي أمر الله تعالى بها عباده المؤمنين ، وتوجيهات الرسول ﷺ لهذه الأمة بأن أخبرها أن التمسك بكتاب الله وسنة نبيه هي المحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا زائغ .

هذه هي الأحوال التي رافقت سيرة خير أمة أخرجت للناس ، أن الإسلام في نصر دائم ، وتوضيح مستمر ، وتفسير صحيح ، ولو أن المسلمين ربما اعتراهم الضعف أحياناً واعتراهم الوهن الذي نتحدث عنه لاحقاً .. لكن الأمر كله قائم على هذا الحق المبين الذي لم يتطرق إليه شك ولا تحويل ولا تحريف ، كما فُعِل بما سبق من عقائد أهل الكتاب ، وأتباع الرسل الذين اتخذوا مع الله آلهة أخرى ، وأشركوا بالله ما ليس لهم بعلم ، وانحرفوا عن جادة الصواب ليس انحرافاً مقبولاً نوعاً ما ، لكنه انحراف إلى درجة القضاء المتناهي في الانحراف العقدي ، فمن التوحيد إلى الشرك ومن الطاعة إلى المعصية ، ومن الإيمان إلى الكفر ، ومن اليقين إلى الشك ، ومن الصواب إلى الخطأ ، لكن المسلمين ما ثبتوا ولا طائفة منهم على الخطأ إلاّ وتغيروا وتبدلوا ، وعادوا إلى جادة الصواب .

تحققت دعوة الإسلام كما سبق بالفتح المبين للمسلمين ، وتحققت الآيات بانتصار الروم على الفرس في بضع سنين ، وانتصر المسلمون في فتوحاتهم ودخل الناس أفواجاً في الإسلام في ظل أمرين عظيمين هما الفتح والنصر ، بآيات قليلة من سورة الفتح : قال الله تعالى : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)** ﴾ [الفتح] .

إن المتتبع لآيات الله تعالى الذي خلق فسوى ، والذي أخرج المرعى ، والذي حفظ المؤمنين على امتداد الزمان والمكان ، ونشر الإسلام بأمرين كبيرين الإنذار للكافرين والبشرى للمؤمنين ،

يجد أن محمدﷺ البشير النذير حقق الله برسالته استمرار الإيمان في الأرض ، و لم ينتزع الإيمان كما حصل لمن سبق من الأنبياء أو الرسالات .

فما زال كتاب الله تعالى محفوظاً في القلوب على امتداد العالم كاملاً ومجزئاً ، ويزيد الحفـــاظ يوماً عن يوم ، ومازال كتاب الله منبع الإيمان واليقين والتشريع والحياة الدنيا والآخرة ، ومـــازال كتاب الله محفوظاً في جميع الوسائل التي توصل إليها الإنسان ، و لم يتخلف لحظة عن الاســـتمرار والتفوق والتقدم والحفظ ، وفي الكتابة والطباعة والصوت والصورة والعقول المؤمنة والحفاظ من أناس في بداية العمر ، إلى أناس في نهاية العمر نساء ورجالاً ، يتداول وينتشر ويزداد حفظاً وتثبيتاً وانتشاراً بكل الوسائل التي اخترعها الإنسان على مدار الأزمان والأماكن ، فهو محفوظ حتى بين يدي أعدائه ، يقدسونه ويحفظونه ويتدارسونه في كل وقت وآن .

هذا هو كتاب الله لمن أراد أن يطلع ، أو يدرس ، أو يتعلم .